مجلة فصل الخطاب Journal of Faslo el-khitab
ISSN:1071-2335/ E-ISSN:2602-5922/ Legal Deposit N°: 2012-1759
مجلد 11، عدد رقم: 02،جوان 2022، صص: 131- 144

تاريخ الاستلام(2021/12/15)تاريخ القبول (2022/05/13)تاريخ النشر(2022/06/30)

مقاربات منهجية لقراءة النص التراثي
الرؤية والتطبيق

Methodological approaches to reading the heritage text, View and application

محمد عروس

جامعة العربي التبسي، تبسة(الجزائر)، arousmohammed@univ-tebessa.dz

ملخص:

تعدَّدت المداخلُ النقدية لمقاربة النص الأدبي، وتنوّعت نتيجة ذلك مسارات القراءة و آفاق التأويل، ولذلك نتساءل: ما أهمية الرؤية المعرفية للمناهج النقدية في تشكيل القراءة؟ وعليه تسعى هذه الدراسة إلى الكشف عن أهمية المقاربات المنهجية في تشكيل الأحكام النقدية حول النصوص ذات الطابع الإشكالي مثل النص التراثي كالشعر الجاهلي.ذلك أن النص التراثي تجاذبته العديد من المقاربات: الإحيائية، والسياقية، والنسقية والتأويلية، ولكل مقاربة منطلقاتها ونتائجها. ومنه فكل استقبال لأي منتوج نقدي تحكمه منطلقات معرفية تكون لها نتائجها في فهم التراث وإعادة بعثه؛بَيْنَ من يقول بالاستمداد والاستمرار، وبين من يقول بالتجديد أو القطيعة، وذلك ما حاولت بحثه هذه الدراسة.

كلمات مفتاحية: النص الأدبي.؛النص التراثي.؛ الشعر الجاهلي.؛ المقاربة الإحيائية.؛المقاربة السياقية.؛ المقاربة النسقية.؛ المقاربة التأويلية.؛

Abstract:

For literary text analysis, there was a wide range of reading preferences and interpretation possibilities because of the variety of critical perspectives available. What is the significance of critical techniques' epistemological view in moulding the reading, then? Critical perspectives regarding difficult works, such as pre - Islamic poetry, may

المؤلف المرسل:محمد عروس، الإيميل: arousmohammed@univ-tebessa.dz

only be formed via the use of methodological methodologies. A variety of methodologies were used to examine the legacy text, each with its own foundation and findings: revivalist, contextualist, systemicist, and interpretativeist. There are two camps when it comes to how we approach understanding the patrimony: those that want heritage and continuity, and those who prefer breaking with tradition and introducing something new. This study will show how both camps approach understanding the patrimony.

Keywords: literary text; the heritage text; Pre-Islamic Poetry; approache revivalist; approache contextual ; approache systemic ; approache interpretative.

مقدمة:

مثَّل النص الأدبي بؤرة مركزية في الاشتغال النقدي؛ سواء تعلق الأمر بماهيته وطبيعته وبنيته اللغوية، أو بإنتاجه وتلقيه. ولذلك تنوعت المقاربات النقدية التي توجهت للنص الأدبي بالبحث والدراسة. وقد برز على الساحة النقدية الحديثة والمعاصرة توجهات نقدية عديدة، ربما أبرزها الإحيائية، والسياقية، والنسقية والتأويلية. ويمكن أن تندرج ضمن كل توجه العديد من التجارب النقدية، منها ما يتعلق بتكوين النص الأدبي، و منها ما يرتبط بتأويله وتداوليته.

يسمح التوجه الذي يمكن أن يطلق عليه المقاربة التكوينية للنص الأدبي بالبحث في بنية النص الأدبي وعلاقته بمؤلفه وسياقات إنتاجه، ويحاول الإجابة عن جملة من التساؤلات من قبيل: ماذا يقول النص الأدبي؟ وكيف يقول النص الأدبي ما قاله؟ وذلك بالبحث في النص الأدبي وعلاقته بمؤلفه، فيكون النص الأدبي لسانا ثانيا لمؤلفه وإن انفصل عنه. وتُجَسِّد المقاربات الإحيائيةوالسياقية هذا التوجه، بينما تبحث المقارباتالنسقية في بنية النص وما ينتج عنه، وكذا المقاربات ما بعد النصية التي تنطلق من النص لبحث علاقاته الخارجية، وكلها مقاربات تكوينية هاجسها الأساس النص.

وتبحث المقاربات التأويلية التداولية، في علاقة النص بالمتلقي، وتداولية النص، وتعمل على الإجابة عن أسئلة من قبيل: ما هي الدلالات المختلفة التي تحملها بنية النص(اللغوية، التعبيرية، التصويرية، الشكلية..)؟ وكيف يُشَكِّل المتلقي تأويلاته المختلفة للنص؟ وكيف يحقق النص تداوليته؟ وذلك بالبحث في علاقة النص الأدبي بالمتلقي، فيكون القارئ منتجا ثانيا للنص، ناطقا باسمه ومؤولا لمقاصده ومحققا لتداوليته. وتمثل البنيوية التكوينية، والسيمياء في بعدها الخطابي، والتفكيك، ونظرية القراءة والتلقي، والنقد الثقافي، والمعرفي، والموضوعاتي وغيرها المقاربات التأويلية للنص الأدبي.

وقد مثَّلت ثنائية التراث والمعاصرة حلبة تصارعت فيها الرؤى والتصورات، ونمت في رحمها الأفكار والمواقف، واحْتَدَّت حولها المعارك الأدبية والنقدية، وذلك ما أعطَى النصوص

التراثية قيمة متجددة عبر الزمان والمكان، وطرحَ العديد من الأسئلة والانشغالات. ومن أهم القضايا التي طرحها الفكر العربي الحديث والمعاصر قضية النص التراثي والمنهج، إذ النص التراثي له بيئته الحضارية التي أنتجته، وله قيمه التي يبشر بها في دنيا الناس، وبالمقابل عرفت الحضارة الغربية ثورة منهجية، ألقت بظلالها على العالم المعاصر، وأمَدَّته بالقيم الجديدة التي تحملها المناهج، فكل منهج إلا ويستند إلى خلفية فلسفية، ويحمل رؤية نقدية، مما جعل النص التراثي العربي تتنازعه العديد من المشارب، والتصورات التي جعلت القراءات الجديدة للتراث يطبعها الاختلاف، ويميزها التنوع؛ بين من تبنى الاستلاب الحضاري، ورهن النص التراثي بمقولات الغرب، وبدا له أن النهوض الجديد للأمة لا يكون إلا بالتبني المطلق لمقولات الآخر. وبالمقابل هناك من اعتبر المناهج النقدية يمكن التسلح بآلياتها الإجرائية، بعيدا عن محمولاتها الفلسفية، وسياقاتها الحضارية .

ولذلك سنحاول التعرف على تطبيق المناهج، والنظريات الحديثة والمعاصرة على النصوص التراثية العربية، بين إمكانية التطبيق، وحدود هذا التطبيق، ومنزلقاته، والإشكالات التي يثيرها تبني المناهج النقدية الغربية على قراءة التراث، وتصور البدائل الممكنة لتوظيف المناهج النقدية الغربية دون الوقوع في الانسلاخ عن القيم الذاتية التي تميز الوجود الفردي والجمعي لكل أمة.

ونظرا لتنوع التراث العربي من جهة، وكثرة التوجهات والمقاربات النقدية التي لامست تمفصلاته وبحثت قضاياه وإشكالاته، ونظرا لمحدودية هذه الدراسة، فإننا سنتخذ من التراث النقدي مادة للدراسة ومن بعض المقاربات التكوينية والتأويلية مداخل لها، وذلك من خلال نماذج نراها مفصلية في التصورات التي وضعتها وفي المخرجات التي نتجت عنها.

وعليه سنحاول معالجة العلاقة بين النص الأدبي وثنائية الإنتاج والتلقي في ظل المقاربتين التكوينية والتأويلية، متخذين من النصوص التي تباينت المقاربات النقدية حولها، وهيمنت عليها رؤى خلافية في حركتها من الهامش إلى المركز ومن المركز إلى الهامش والمتمثلة أساسا في "التراث النقدي" وما دار حول "الشعر الجاهلي" من دراسات مادة للبحث، لأن هذه النصوص وغيرها غلبت عليها علاقات متوترة بين ثلاثية النص، والمبدع، والمتلقي.

2.المقاربات التكوينية للنص التراثي

تبحث المقاربات التكوينية في استثمار العناصر خارج النصية في توجيه القراءة، وتتجسد في العديد من المداخل المنهجية التي يمكن أن نرصدها في الآتي:

1.2المقاربة الإحيائية للنص التراثي

لا يخفى على المتتبع للتطور التاريخي للأمة العربية والإسلامية عمق التحولات التي رافقت وجودها، بين حالات مَدٍّ، امتد فيها نفوذها، وأصبحت بؤرة مركزية للحضارة الإنسانية؛ تمدها بالعلم، والمعرفة، والفكر، والأدب، والثقافة، صانعةً التميز في شتى مجالات الحياة؛ الثقافية، والاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، مثلما هو الشأن في العصر العباسي الأول، والحضارة الأندلسية. وبمقابل هذا المد كان الجَزْرُ الذي مَسَّ جوانب الحياة المختلفة، ولا أدلَّ على ذلك من حالة الركود والخمول والضعف الذي ميز نهاية العهد العثماني، الذي انجر عنه سقوط الخلافة، وتفكك النسيج الثقافي والفكري للأمة العربية والإسلامية، في وقت سطع فيه نجم الحضارة الغربية التي توزعت تركة الرجل المريض قبل وفاته، فاحتلت الأوطان وغدا نموذجها الحضاري محل اهتمام من طرف الدول المغلوبة على أمرها و"المغلوب دائما مولع بتقليد الغالب" من جهة، ومن جهة ثانية كان هذا الاصطدام بالآخر الحضاري فرصة للتعرف على الذات، وتلمس سبل النهوض، وعليه كانت حركة الإحياء العربية، في محاولة منها لإحياء التراث، وإعادة قراءته في ظل هذه التحولات الحضارية التي عرفها الوجود العربي من جهة، والوجود الغربي من جهة ثانية، ومن النماذج التي شكلت هذا التوجه يمكن أن نذكر "حسين المرصفي"، والذي يمكن تلخيص مقاربته الإحيائية للتراث بـ" الانتقاء والانتقاد".

يأتي "حسين المرصفي" بمنظوره الإحيائي في ذروة المشتغلين بإحياء التراث مع بدايات العصر الحديث، خصوصا وقد اتخذ من ثنائية "الانتقاء" و"الانتقاد" مدخلا لفهم التراث، وإعادة بعثه، وإنتاجه مع التحولات التي عرفها المجتمع العربي والثقافة العربية نهاية القرن التاسع عشر. وقد قدَّم منظوره الإحيائي في جو تسوده الآراء المتعددة بل المتصارعة؛ فدار المعلمين يومها - والتي صنعت النخبة وكونت الجيل- كانت تقدم فيها آراء المرصفي جنبا إلى جنب مع آراء المستشرقين.

وتعد رسالة "الكلم الثمان"[1] جوهر التصورات الفكرية عند المرصفي، مثلما تعد "الوسيلة الأدبية إلى العلوم العربية" بمثابة "القانون" الذي يحكم إعادة إنتاج الثقافة العربية وبعثها من جديد. ويمكن أن نورد فقرة تلخص الموقف النقدي من النص التراثي عند المرصفي، حيث يقول: « وإنما وقفت معك هذا الموقف لِيُولّد فيك الاطلاع على مثل هذا الكلام جراءة وإقداما على استعمال ذوقك، وإطلاق فكرك في تمييز جيد الكلام ورديئه، وصحيحه، وفاسده، ورفيعه، ووضيعه، ولا تتمكن منك مهابة أن هذا شعر فلان المشهور فيستولي عليك حال التقليد »[2]. لقد كان "المرصفي" مشبعا بالثقافة العربية وبذلك جعلها مدخلا مهما في قراءة التراث وإعادة إنتاجه، لا على سبيل الاستمداد المباشر والتسليم المطلق لمقولات التراث النقدية، وإنما على سبيل "الانتقاء" و"الانتقاد"، ولا أدل على ذلك من مناقشته لآراء الباقلاني بنظرة جديدة.

إن محاولات الإحياء يحكمها هاجس رئيس يتمثل في كيف يمكن للتراث أن يصوغ مقولات الإحياء ويتحكم في توجهاته. وقد تجسد في توجهين رئيسين: الأول يتخذ من "الاستمداد المباشر من التراث منظورا له " كما عند "حمزة فتح الله" ومحمد سعيد". بينما يعتمد الثاني ثنائية "الانتقاء" و"الانتقاد" سبيلا لإعادة صوغ التراث والتأسيس للنهضة. والذي يجمع هؤلاء الإحيائيين أنهم « يقبلون مقولات التراث على تفاوت في سعة شروط القبول أو ضيقها، وعلى تفاوت في درجة أصالة النتاج المترتب على اتجاه كل منهم ونظرته»[3]. والمهم في التوجه الإحيائي لبعث التراث هو استناده لمنظور الثقافة العربية، واتكاؤه على مقولاتها النقدية، في إعادة إنتاج المعرفة، وترهين الخطاب النقدي بعيدا عن تأثير المقولات الغربية.

2.2المقاربة السياقية للنص التر اثي

مَثَّلَ المدخل السياقي نافذة قرائية مبكرة لإعادة قراءة التراث ونصوصه الأساسية، متخذا من المنهج التاريخي زمن ألقه المعرفي مادة منهجية تطبق مقولاتها وإجراءاتها على التراث وتحاول إعادة اكتشافه، و« كان الشعر الجاهلي من الموضوعات التراثية التي وجدت فيها القراءة العربية ذات المنحى التاريخي الميدان الخصب لتطبيق الكثير من رؤاها ومقولاتها، وأدواتها الإجرائية، نظرا لخصوصية طابعه من حيث البيئة التاريخية والاجتماعية والسياسية والثقافية التي نشأ فيها، بوصفه أحد المنابع التي نهلت منها الثقافة العربية عبر عصورها المختلفة، وبشتى اتجاهاتها»[4]، ونظرا لامتداده وتسلله للذائقة العربية في ذاكرة الزمان، والمكان، وبناء الحضارة العربية والإسلامية في شقها الفكري والأدبي، بل في تشكيل نسقها الحضاري كما يذهب رواد النقد الثقافي.

ولذلك تعددت مداخل المنهج التاريخي لقراءة التراث – وإن اتفقت في الوجهة العامة وهي قراءة التراث من منظور المنهج التاريخي- وتباينت النتائج المتوصل إليها، بناء على المرجعية التي تسند كل دارس، والغاية التي يصبوا إليها، بين الإخلاص للمنهج، أو تجزيء المقولات، وتوجهها بما يحقق الرؤية المسبقة، ولذلك طرحت العديد من الإشكاليات والتصورات حول التراث العربي والشعري على وجه الخصوص بناء على معطيات المنهج التاريخي ومحاولة توظيف مقولاته على التراث العربي، ويمكن أن نتبين ذلك من خلال نموذج محوري هو "طه حسين".

مثلت مقاربة "طه حسين" بؤرة مركزية في قراءة النص التراثي، تحركت حولها كل المقاربات، وخصوصا مقاربته للشعر الجاهلي، وصدوره عن رؤية منهجية تعتد بالمنهج التاريخي في صورته الغربية من جهة، وتتخذ من الشك المنهجي عند "ديكارت" أداة معرفية لمساءلة الوقائع، والنظر في القضايا التي أثارها، والتصورات التي بنى عليها موقفه النقدي من التراث، فالشك الذي يريده "طه حسين " هو«الشك الذي يبعث على القلق والاضطراب، وينتهي في كثير من الأحيان إلى الإنكار والجحود »[5] كما يقول.

وتكمن أهمية هذه الرؤية في تجاوز "طه حسين" مقولات الانتحال وأصل الشعر الجاهلي ولما رصده "ابن سلام الجمحي" و"مارجيليوث" إلى القرآن الكريم الذي يتأسس فهمه عند اللغويين والمفسرين على هذا الشعر، والقول إن كل استشهاد بالشعر على فهم القرآن لا يصح، يقول طه حسين: « وسينتهي بنا هذا البحث إلى نتيجة غريبة، وهي أنه لا ينبغي أن يستشهد بهذا الشعر على تفسير القرآن وتأويل الحديث»[6]. بل أكثر من ذلك، إنكار ما أثبته القرآن من حقائق من قبيل إنكار وجود "إبراهيم" و"إسماعيل" –عليهما السلام- وما تشكل حولهما من قصص قرآني، لأن الوقائع التاريخية لا تثبت ذلك حسب "طه حسين". يقول "طه حسين": « للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل، وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضا، ولكن ورود هذين الاسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي»[7]. إن تطبيق مبدإ الشك ومنهج البحث التاريخي على التراث العربي قاد "طه حسين" إلى نتائج بقيت مثارا للجدل، إذ« المعركة التي تبناها طه حسين في طرحه لإشكالية الشعر الجاهلي هي معركة ذات أبعاد حضارية قبل أن تكون ذات أبعاد نقدية، وكان ذلك بفعل تأثره بأساتذته المستشرقين الذين تتلمذ على أيديهم سواء أكان ذلك في الجامعة الأهلية بمصر أم في فرنسا من أمثال جويديونللينووفييت، حيث كان منهجهم في مقاربة التراث وإشكالياته يعتمد على آليات منهج تاريخ الأدب الذي يركز على تحقيق الظواهر الأدبية»[8]. إن ما يهمنا ونحن نناقش حضور المناهج الغربية وتأثيرها على قراءة التراث النقدي ومقاربته منهجيا هو الدعوة إليها من طرف النقاد من جهة أولى، ومدى تمثل معطياتها المنهجية من جهة ثانية، وخطورة هذا التمثل على قراءة التراث من جهة ثالثة.

ذلك أن المناهج تمثل في أصلها استجابة طبيعية للتحولات الحضارية عند الغرب وكل تمثل لها سيسحب مقولاتها ويكون له تأثيره على القراءة ، يصرح بذلك "طه حسين" وهو بصدد التأكيد على رؤيته الغربية في قراءة التراث، واستناده إلى منهج "الشك" عند "ديكارت": «وسواء رضينا أم كرهنا فلا بد أن نتأثر بهذا المنهج في بحثنا العلمي والأدبي كما تأثر من قبلنا به أهل الغرب. و لا بد أن نصطنعه في نقد آدابنا وتاريخنا كما اصطنعه أهل الغرب في نقد آدابهم وتاريخهم. ذلك لأن عقليتنا نفسها قد أخذت منذ عشرات من السنين تتغير وتصبح غربية، أو قل أقرب إلى الغربية منها إلى الشرقية. وهي كلما مضى عليها الزمن جدت في التغير وأسرعت في الاتصال بأهل الغرب »[9]. إنه التبني الواضح والصريح لمقولات المنهج الغربي عند "طه حسين" مما يجعل النتائج المتوصل إليها ذات بعد معرفي وحضاري، يدور في فلك الاستمداد الكلي من الغرب من الناحية المنهجية في مقابل الاستمداد الكلي من التراث عند من اعتبر التراث السبيل الأقوم لكل نهوض.

وعليه تبرز المرجعيات المستعارة –بتعبير عبد الله إبراهيم- في تشكيل الثقافة العربية الحديثة والمعاصرة، خصوصا وأن هذا التشكيل لم يأخذ« شكل تفاعل وحوار، إنما يمتثل لمعادلة الإقصاء والاستبعاد من جهة، والاستحواذ السلبي والاستئثار من جهة أخرى»[10]. وعليه فما قام به "طه حسين" يتأسس على فكرة النظر إلى التراث من خلال الآخر، منهجيا ومعرفيا، مع اعتبار الآخر الثقافي هو المثل الذي يجب أن يحتذى، وبذلك فالخطاب النقدي الذي تبناه "طه حسين" وآمن به وكانت له الجرأة على إشاعته في الناس مَثَّلَ بؤرة مركزية في الثقافة العربية، يمكن أن تقرأ في نطاق هيمنة المؤثر الغربي على قراءة التراث النقدي وتوجيه مقولاته.

3.المقاربات النسقية والتأويلية

يتأسس النص التراثي على بنية نصية تطلب بحثا لاكتشاف نسقها الباني وتأويلا يفعل التراث في الوجود المعرفي والحضاري للأمة، ولذلك فإن المقاربة النسقية والتأويلية من أهم المقاربات التي توجهت للنص التراثي وبحثت تداخلاته وتفاعلاته.

1.3 المقاربات النسقية:

ويستند النقد النسقي بشتى توجهاته؛الشكلانية الروسية، البنيوية، البنيوية التكوينية، الأسلوبية، السيميائية في بعدها المحايث، النقد الجديد... إلى تمثله معطيات العلم التجريبي بخلفيته الفلسفية، وسياقاته الحضارية التي نقلت المعرفة الغربية منالكنيسة إلى المخبر ومن الميتافيزيقي إلى الفيزيقي.

وقد أراد أصحاب النقد العربي المعاصر نقل المناهج النقدية من تربتها الأصلية(المهاد الغربي) واستنباتها في التربة الجديدة(الفكر العربي) التي تختلف في مكوناتها، وفي الشروط التي تتطلبها عملية الإنتاش، والنمو، والإثمار، إذ التوجه النسقي طغى على مصاحباته الفكرية التوجه العلماني الذي يزدري التراث وما يرتبط به من أصالة، ويعتد بالمعاصرة وما في فضائها من ارتماء في حضن الآخر الغربي، بكل محمولاته الفكرية، والمعرفية، والمنهجية عند بعض الدارسين الذين آمنوا بالمركزية الغربية في سياقها الحضاري والمعرفي والمنهجي.

بينما مثلت التحولات الحضارية عند الغرب نوافذ معرفية يمكن أن يُستفاد منها بمقدار ما يمثل إرثا إنسانيا، في الجوانب المنهجية، والإجرائية، أما ما يمثل محمولات تتعلق باختيارات الغرب الحضارية كالعلمانية، وفصل الدين عن الدولة، وفصل الوجود عن منشئ الوجود، واتباع مقولة "لا إلاه والحياة مادة"، وما تبعها من فعل براغماتي، يرهن الوجود البشري بمقولة "دعه يعمل دعه يمر"، دون مراعاة لدين أو ضوابط أخلاقية، فلا يمكن أن تكون تلك الرؤى والتصورات نوافذ قرائية للتراث وإعادة تشكيل الفكر العربي والإسلامي عند هؤلاء، لأن قراءته في ظل هذه المقولات سيؤدي إلى إلغاء الذات، والوجود والكيان للأمة العربية والإسلامية، وإلباسها ألبسة

أخرى، تعطيها قَوَامًا غير قوامها، وتمنحها شكلا ليس شكلها، بل تغير جوهرها وعناصر بنائها، وذلك ما تغيته العولمة وعملت كل أسلحتها بدءا بالاستشراق والاستعمار، والإعلام على استهدافه وترسيخه في الوجود العربي، وكانت المناهج النقدية بشتى تصوراتها نوافذ لهذه الرياح التي هَبّت عواصفها على الوجود الثقافي للأمة العربية في حقل العلوم الإنسانية، وكان التراث العربي وما تشكل حوله من تصورات مركز هذه العاصفة.

مَثَّل التوجه نحو النص حجر الزاوية في كل قراءة نسقية، ذلك أنه نتيجة « الانقلاب الابستمولوجي الذي حدث في بنية المجتمعات الغربية، والتطور الحاصل على مستوى الإجراء المنهجي، فإنه قد ترسخت الدعوة إلى مزيد من القراءة، وإعادة النظر في كثير من النصوص، بغية الوصول إلى إنتاج الفهم، وتقديم إضافات جديدة، وهو ما شكل انطلاقة فعلية لبعض الدارسين العرب المعاصرين، فاستوقفتهم المناهج النقدية الحداثية، واستهوتهم القراءة الجديدة، وتعززت لديهم القناعة، بضرورة التوجه الجديد الداعي إلى توظيف هذه المناهج وخاصة منها النسقية في معرفة النص وقراءته، وتأويله»[11]. ولذلك ينشأ دائما الجدل القائم بين المنهج النقدي والخلفية الحضارية التي تسنده، فمقولة "الموت" مثلا التي طغت على كل التصورات الخاصة بالنقد النسقي تستند إلى مقولة "موت الإله" عند "نيتشه" ومن تبنى آراءه، بل تنسحب على علاقة الديني بالسياسي والأب بالأبناء وقس على ذلك. ومنه فالتراث مقولة إشكالية؛ نصا، ورؤية، ومنهجا، وكل قراءة للتراث إلا وتحضر فيها ظلال الرؤية، ورواسب المنهج، وآثار حفر الأداة. وذلك ما يمكن تبينه في النماذج الآتية للقراءة النسقية للتراث.

يبرز "كمال أبو ديب" في رؤيته الموسعة للمنهج البنيوي. ويصدر "كمال أبو ديب" في قراءته للتراث عن رؤية منهجية، يعتقد أنها كفيلة بتحقيق الهدف والغاية من إعادة قراءة التراث الشعري. وتتمثل تلك الرؤية المنهجية في البنيوية، باعتبارها متجهة إلى النص، ومتسمة بالبحث في الكليات، وإبعاد المقصدية، والقول بموت كل ما من شأنه أن يعيق حركية النص الداخلية. والمنهج البنيوي –حسبه- يمكن أن يؤدي إلى « تغيير الفكر العربي في معاينته للثقافة والإنسان والشعر، إلى نقله من فكر تطغى عليه الجزئية والسطحية والشخصانية إلى فكر يترعرع في مناخ الرؤية المعقدة، المتقصية، الموضوعية، والشمولية والجذرية في آن واحد »[12]. ومنه يغدو التراث مقوما أساسا للوجود القومي، الذي له مميزاته الخاصة التي يمكن استثمارها في البعث والإحياء بمنظور وقراءة جديدة تتجاوز ما تم من قراءات اتسمت بالجزئية من جهة، والنظرة العابرة غير المتفحصة لمكونات البنية العامة للتراث، والتي تربط بين مكوناته، وتضع تصورات عامة تربط الأدبي بالثقافي بالسياسي والاجتماعي.

في قراءة "كمال أبو ديب" للتراث الشعري محاولة لتطبيق المنظور البنيوي في صورته الشمولية على الثقافة العربية في صورتها الشعرية[13]، إيمانا منه بجدوى المنهج في بعث التراث، وأن التوجه البنيوي يمثل تمفصلا نقديا يمكن أن يحرر الفكر، والإنسان، والتراث مما علق به خلال مساره الطويل من رواسب قرائية تنازعتها ثنائية الترقيعية والتوفيقية حسبه[14]، وآن أوان قراءته من منظور جديد، يتخذ من البنيوية منهجا ورؤية. إذ نصبح نرى الوجود بعين جديدة مختلفة عن الرؤية السابقة. وسبب التغيير هو تغيير منهجي، ولذلك آثر عن وعي ورؤية تقديم دراسته عن الشعر بتطبيق المنهج البنيوي على نصوص شعرية منها التراثي القديم، ومنها المعاصر، ليبين كفاءة المنهج في قراءة النصوص، وما تحمله النصوص من قيم حضارية، يمكن أن تعيد إنتاج الأمة حضاريا.

وعليه سيكون القارئ «في وضع يسمح له باستيعاب المقومات الجوهرية للبنيوية وقدرتها الفذة على إضاءة العالم-الثقافة والشعر والإنسان- إضاءة جديدة تمنح الفكر النقدي صلابة أشد، ورهافة أحدّ، وقدرة أكبر على معاينة الثقافة وتمثلها وفهم دلالات مكوناتها وإشعاعاتها والتشابك المذهل بين ظواهرها وعلاماتها الأساسية »[15]. وبهذا المنظور يغدو المنهج البنيوي بتصور "كمال أبو ديب" بمثابة المنهج المتكامل الذي من شأنه أن يعيد للثقافة العربية القدرة على التفاعل مع الحياة المعاصرة.

وتصبح نتيجة ذلك عناصر التراث لبناة بانية للتصورات الكبرى التي تسمح بملامسة قضايا الوجود العربي المعاصر وتفهم صيرورتها التاريخية، مثلما تسمح بإيجاد حلول لقضايا فكرية ووجودية، تؤرق الفكر العربي المعاصر كالتخلف، والعنف، وكل ما تعلق بالحياة السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية، فـ«تصبح ظاهرة العنف في التراث العربي والحياة العربية، مثلا، موضوعا لمعاينة بنيوية »[16] كما يقول أبو ديب. ولا غرابة عنده أن يكون الإيقاع الشعري مفتاحا لفهم ما خفي من دهاليز السياسية، وأروقة الاقتصاد، يقول: «وبهذا التصور تصبح دراسة الظاهرة الإيقاعية منهجا للرؤية يمكن استخدامه في دراسة الظواهر الاجتماعية والسياسية والاقتصادية في الحياة العربية عبر تاريخها الطويل »[17]. ومنه فالتراث بمثابة سجل حافل بالقيم الشعورية، والوجودية، تنتقل عبر جيناته التصورات الكبرى للأمة. ولا يمكن إعادة اكتشاف تلك الخرائط إلا بالدراسة الكلية التي تعيد إنتاج التراث بمنظور جديد.

إن الرؤية المنهجية التي يتبناها "كمال أبو ديب" في مقاربته للنصوص، والتي تستقي منظورها المنهجي من الفكر الغربي، وتتخذ مادتها التطبيقية من التراث العربي، يكون فيها « فهم القصيدة مثلا لفهم العالم، ويصبح وعي العلاقات التي تنشأ بين مكونات الثقافة وعيا للعلاقات التي تنشأ بين مكونات البنية الاقتصا-سية، والنفسية والاجتماعية. »[18]. ولا يخفي "كمال أبو ديب"

صعوبة المنهج البنيوي، ومزالق تطبيقاته بدءا بصعوبة تحديد البنية، والبحث في العلاقات، إلى اكتشاف البنية وتعميمها، إن على الظاهرة الإبداعية أو تعميمها على الظاهرة الإنسانية. ومع ذلك يعتبر كفاءة الباحث، ومثابرته وقناعته المعرفية، ورؤيته المنهجية كفيلة بتجاوز تلك العقبات، وسبيلا للإقلاع الحضاري للأمة، وذلك بإعادة قراءة تراثها من منظور منهجي جديد.

2.3المقاربة التأويلية للنص التراثي:

كان للمقاربة التأويلية الحضور الكبير في قراءة النص التراثي، وتبرز قراءة أدونيس في مقاربتها لثنائية الشفوية والكتابية. يرجع أدونيس قراءته للتراث في مقاربته لأصول الشعرية العربية إلى الشفوية، فعلى « خصائص الشفوية الشعرية الجاهلية تأسس في العصور اللاحقة النقد الشعري العربي، في معظمه، وتأسست النظرة إلى الشعرية العربية نفسها. وتولدت عن ذلك معايير وقواعد لا تزال مهيمنة ليس على الكتابة الشعرية وحدها، وإنما أيضا على المقاربة الذوقية والفكرية والمعرفية المتصلة بالشعر وقضاياه»[19].

وبناء على ذلك يعتبر أن الانتقال الحقيقي من الشفوية إلى الكتابية بدأ مع الدراسات القرآنية، وأن هذه الدراسات« وضعت أسسا جديدة لدراسة النص، بل ابتكرت علما للجمال، جديدا، ممهدة بذلك لنشوء شعرية عربية جديدة»[20]. وبذلك يحدد أدونيس جملة من المبادئ الجمالية والنقدية للمقاربة التأويلية للتراث، تتمثل في:

- مبدأ الكتابة دون احتذاء نموذج مسبق، وهو المتجلي في محاولات التجديد الذي عرفه الشعر العربي: بشار بن برد، أبو نواس، مسلم بن الوليد، أبو تمام، أبو الطيب المتنبي.
- اشتراط الثقافة العميقة والواسعة لكل من الشاعر والناقد.
- النظر في كل من النص الشعري القديم والمحدث، في معزل عن مبدأ السبق الزمني.
- نشوء نظرة جمالية جديدة، لا تعتمد الوضوح معيارا ، وإنما تعتد بالغموض.
- إعطاء الأولوية لحركية الإبداع والتجربة، بحيث يصبح الشعر تجاوزا، وتصبح الشعرية ضربا من الفتنة.

لا تنفصل عرى التراث ومكوناته عن بعضها البعض في شروط الإنتاج وكذا في شروط التلقي على حد سواء، ذلك أن« فعل قراءة التراث فعل واحد، لا ينفصم من حيث المنظور المنهجي، ولا يختلف في آلياته أو إجراءاته من حقل معرفي إلى حقل آخر من حقول التراث، فهو فعل متحد، متكرر الكيفية والتوظيف والأداء، في كل الحقول التراثية»[21]. ومنه لا يمكن أن نتصور التراث بمثابة جزر منفصلة عن بعضها البعض، بل هي أقاليم متداخلة المعالم ومتشابكة العلاقات، فمثلما تترابط داخل الحقل المعرفي الواحد: الأدب، والنقد، والبلاغة ، واللغة... تتداخل مع الحقول المتجاورة: الفلسفة، والتفسير، وعلم الكلام...، بل تتداخل ضمن المنظومة القيمية

الواحدة: الأدب، والفكر، والسياسة، بل أكثر من ذلك في علاقة المنظومة القيمية للأمة العربية بالمنظومات التي تحكم العالم المعاصر، فلا تقرأ الذات إلا في مرآة الآخر. وذلك ما يحتم على كل قراءة للتراث من منظور "جابر عصفور" أن تكون متسعة الدائرة الإدراكية، متجاوزة الحدود المعرفية للحقل الواحد، بل للمنظومة القيمية الواحدة.

ومثلما تتداخل الحقول المعرفية في قراءة التراث تتدخل الذات القارئة في عملية القراءة فلا يمكن أن تنفصل الذات (القارئ) عن الموضوع (التراث)، وبذلك فكل قراءة للتراث تتلبس بمرجعية صاحبها، وذلك ما يفسر اختلاف القراءات الحديثة والمعاصرة لإشكاليات التراث بل اختلافها في تحديد الإشكاليات المتعلقة بأسئلة التراث، والتي تؤطرها ثنائية الوجودي والمعرفي، ذلك « أن لهذا التراث –في لحظة القراءة- حضورا مزدوجا، ينطوي على مفارقة تميزه على المستوى الوجودي (الأنطولوجي)، والمعرفي (الابستمولوجي) معا»[22]، فالتراث موجود بالفعل ضمن سياق تاريخي وثقافي وحضاري للأمة، بقي نسغه يتسلل إلى كل كيانها المعرفي والثقافي؛ يتبدى على اللسان ثقافة، وعلى الوجدان عواطف، وعلى السلوك تصرفات، وهذا الوجود تتخلق حوله في كل تحول حضاري أسئلة معرفية، قد تتخذ منه نبراسا يحتذى، وقد تتخذ من معطيات الواقع الجديد دليلا للقراءة.

تسمح لنا هذه النماذج المنتقاة والمداخل التي سلطنا الضوء على بعض تمفصلاتها من تصور حجم المشكلات المتعلقة بتطبيق المناهج النقدية على النص التراثي، ودور النص التراثي في دائرة البحث والمقاربة النقدية المتجهة صوبه، ومع ذلك يجب الإشارة إلى أن العديد من المداخل كان من المفترض التوقف عندها، واستجلاؤها بالبحث والدراسة مثل المدخل المعرفي، والثقافي، و الأيديولوجي، و الإسلامي، و النفسي، و الاجتماعي، والمقارن وغيرها من المداخل. ولكن ذلك ما لا تتسع له مثل هذه الورقة البحثية، غير أن الملابسات المنهجية والمعرفية المتعلقة بالنماذج المدروسة، والمداخل المختارة، لا تختلف كثيرا عن ملابسات المداخل التي لم تدرس. ومن جهة ثانية فإن اتساع دائرة النص التراثي جعلنا نحدد زاوية النظر بالتراث النقدي في الكثير من الأحيان لارتباطه بالمقاربات النقدية التي هي الغاية المبتغاة من ترهين الخطاب النقدي.

4. خاتمة:

إن أهم النتائج التي تم التوصل إليها يمكن إجمالها في العناصر الآتية:

– التأكيد على أهمية المنهج النقدي في مقاربة النص التراثي، إذ تشكل ثنائية النص والمنهج مدارا للتجربة النقدية وتكون بالتالي نتائج المقاربة النقدية رهينة للتوجه النقدي الذي يتبناه الدارس.

– إن استناد المناهج النقدية إلى خلفية فلسفية تؤطر مقولاتها تجعل المقاربة النقدية مختلفة بين المقاربة النسقية والسياقية والمعرفية والنفسية وغيرها من التوجهات النقدية، وتنعكس تلك الخلفية على المنظور النقدي ونتائج الدراسة للنص التراثي الذي تخضع له تلك المقولات.

– تكمن أهمية النص التراثي في غناه بالموروث الفكري والثقافي، وذلك ما يجعلها قمينة بالدراسة في كل تحول فكري وإبدال حضاري. إذ تراث كل أمة بمثابة منصة إقلاع إذا أحسن استثمارها، ومستند ارتكاز يمكن الاستناد عليه في كل تصور للحياة والإنسان، والواقع والمستقبل، إذ الماضي أرضية الحاضر والمستقبل.

– تنوعت المقاربات النقدية التي توجهت بالدراسة إلى النص التراثي بدءا بالمقاربة الإحيائية والسياقية والنسقية والتأويلية. وقد تنازع المقاربة الإحيائية للتراث بين فكرة **الاستمداد المباشر** من التراث حيث يهيمن التراث على الذائقة الإبداعية ويتحكم في المقاييس النقدية. وكانت مقولة **الانتقاء والانتقاء** مهيمنة عند بعض الدارسين للتراث عند "حسين المرصفي" على وجه الخصوص.

– جسدت المناهج السياقية في قراءة التراث استنادها إلى خلفية فلسفة الحضارة الغربية مع المنهج التاريخي مثلا حيث حضور **المؤثر الغربي معرفيا ومنهجيا** مما انعكس على قراءة التراث وتوجيه النتائج عند "طه حسين".

– كانت المقاربات النسقية للتراث رهينة تحول حضاري استند على منطق **البنيات والكليات**، مما جعل قراءة "كمال أبو ديب" تتسم بالشمولية والعلائقية" وجعل النص التراثي –الإيقاع الشعري مثلا- يمكن أن يكون مفتاحا لدراسة الظواهر الاجتماعية كظاهرة العنف.

– لقد مثلت قراءة "أدونيس" قراءة تأسيسية لإشكالية الشفاهية والكتابية، ومركزية الدراسات القرآنية في هذا التحول.

– إن ترهين الخطاب النقدي يقتضي بالضرورة إعادة النظر في استقبال المناهج النقدية وإعادة النظر في ما تم انجازه من مشاريع.

يمكن أن نخلص في النهاية إلى «أن تفاعل المعاصرين مع التراث النقدي قد وجهته قضية المنهج وأثرت فيه إلى حد بعيد»23، وكل استقبال للمنهج وتطبيق له على النص التراثي يقتضي الوعي الحضاري، والاستقلال الوجودي مما يجعل المنهج يتحول إلى أداة تفيد الباحث، وتخدم النص، وتحقق التفاعل الإيجابي بين التراث والمنهج، وذلك ما يولد في نهاية المطاف ميلاد المنهج الذي يتناسب والتراث الخاص للأمة، مهما كانت طبيعة المقاربة تكوينية أو تأويلية

مراجع البحث وإحالاته:

1 - حسين المرصفي: رسالة الكلم الثمان، تحقيق ودراسة خالد زياد، ط1، بيروت، 1982.

2 - حسين المرصفي: الوسيلة الأدبية إلى العوم العربية، الجزء الثاني، مطبعة المدارس الملكية بدرب الجماميز، ط1، القاهرة، مصر، 1292هـ، ص 344.

3 - عبد الحكيم راضي: النقد الإحيائي وتجديد الشعر في ضوء التراث، دار الشايب للنشر، ط1، مصر، 1993، ص 29.

4 - محمد بلوحي: آليات الخطاب النقدي العربي الحديث في مقاربة الشعر الجاهلي، بحث في تجليات القراءات السياقية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سورية، 2004، ص20.

5 - طه حسين: في الشعر الجاهلي، دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة، تونس، د ت ، ص14.

6 - المرجع نفسه، ص21.

7 - المرجع نفسه، ص38.

8 - محمد بلوحي: آليات الخطاب النقدي العربي الحديث في مقاربة الشعر الجاهلي، بحث في تجليات القراءات السياقية، ص63.

9 - طه حسين: في الشعر الجاهلي، ص57.

10 - عبد الله إبراهيم: الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة، الدار العربية للعلوم ناشرون، دار الأمان، ط1، الرباط، 2010، ص 09.

11 - دياب قديد: قراءة حداثية للتراث وإشكالات المنهج، الندوة الدولية الثانية، قراءة التراث الأدبي واللغوي في الدراسة الحديثة، بحوث علمية محكمة، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب، جامعة الملك سعود، 25-2014/02/27، 1435/04/25،27، ص52.

12 - كمال أبو ديب: جدلية الخفاء والتجلي، دراسات بنيوية في الشعر، دار العلم للملايين،ط3، بيروت، لبنان، 1984، ص 8.

13 - طبق كمال أبو ديب منظوره البنيوي على التراث الشعري في كتابيه: جدلية الخفاء والتجلي، دراسات بنيوية في الشعر (1979)، والرؤى المقنعة نحو منهج بنيوي في دراسة الشعر الجاهلي(1986)، وكذا العديد من أعماله النقدية غير أننا لضيق دائرة البحث سنتخذ من الكتاب الأول مرجعا للدراسة لأنه يمثل عمق تصوراته في الموضوع.

14 - كمال أبو ديب: جدلية الخفاء والتجلي، دراسات بنيوية في الشعر، ص8.

15 - المرجع نفسه، ص11.

16- المرجع نفسه ، ص14.

17- المرجع نفسه ، ص14.

18- المرجع نفسه ، ص15.

19 - أدونيس: الشعرية العربية، دار الآداب، ط2، بيروت، لبنان، 1989، ص 13.

20 - المرجع نفسه، ص51.

21 - المرجع نفسه ، ص37.

22 - المرجع نفسه ، ص59.

23-عبد القادر الحسون: إشكالية المنهج عند النقاد المعاصرين ودورها في قراءة الشعر القديم، الندوة الدولية الثانية، قراءة التراث الأدبي واللغوي في الدراسة الحديثة، بحوث علمية محكمة، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب، جامعة الملك سعود، 25-2014/02/27، 1435/04/25،27، ص112.

قائمة المراجع

1. إبراهيم عبد الله: الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة، الدار العربية للعلوم ناشرون، دار الأمان، ط1، الرباط، 2010.
2. أبو ديب كمال: جدلية الخفاء والتجلي، دراسات بنيوية في الشعر، دار العلم للملايين،ط3، بيروت، 1984.
3. أدونيس: الشعرية العربية، دار الآداب، ط2، بيروت، لبنان، 1989.
4. بلوحي محمد: آليات الخطاب النقدي العربي الحديث في مقاربة الشعر الجاهلي، بحث في تجليات القراءات السياقية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سورية، 2004.
5. الحسون عبد القادر: إشكالية المنهج عند النقاد المعاصرين ودورها في قراءة الشعر القديم، الندوة الدولية الثانية، قراءة التراث الأدبي واللغوي في الدراسة الحديثة، بحوث علمية محكمة، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب، جامعة الملك سعود، 25-2014/02/27، 1435/04/25،27هـ.
6. حسين طه: في الشعر الجاهلي، دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة، تونس، د ت.
7. راضي عبد الحكيم: النقد الإحيائي وتجديد الشعر في ضوء التراث، دار الشايب للنشر، ط1، مصر، 1993.
8. عبد الحليم عويس: الشيخ الغزالي تاريخه وآراءه، دمشق، دار القلم،ط1، 2000.
9. عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز، تحقيق :محمود محمد شاكر، القاهرة: مكتبة الخانجي،ط1 ، 1989 .
10. قديد دياب: قراءة حداثية للتراث وإشكالات المنهج، الندوة الدولية الثانية، قراءة التراث الأدبي واللغوي في الدراسة الحديثة، بحوث علمية محكمة، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب، جامعة الملك سعود، 25-2014/02/27، 1435/04/25،27.
11. محمد الغزالي : تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل، فيزيولوجيا و.م.أ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1991.
12. محمد الغزالي : حصاد الغرور، دمشق، دار القلم، ط3، 1998م.
13. محمد الغزالي : خطب الشيخ في شؤون الدين والحياة طبع دار الاعتصام القاهرة ،بدون تاريخ .
14. محمد الغزالي : دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من هذا القرآن، طبعة دار الفكر، دمشق.
15. محمد الغزالي : مع الله، دار الكتب الإسلامية القاهرة ،ط6 ،1425هـ.
16. محمد الغزالي: موكب الدعوة، طبع نهضة مصر القاهرة، ط 1، 1997.
17. محمد الغزالي: نظريات في الفكر و القرآن، الجزائر، دار الشهاب، ط1.
18. المرصفي حسين: الوسيلة الأدبية إلى العوم العربية، الجزء الثاني، مطبعة المدارس الملكية بدرب الجماميز، ط1، القاهرة، مصر، 1292هـ.
19. المرصفي حسين: رسالة الكلم الثمان، تحقيق ودراسة خالد زياد، ط1، بيروت،1982.
20. يوسف القرضاوي: الشيخ الغزالي كما عرفته، القاهرة، دار الشروق،ط1، 2000.